العلويّون النصيريّون والمستشرقون الفرنسيّون

الدكتور علي أكبر الضيائي

«النُّصيرية» إحدىٰ الطوائف المغمورة التي اشتهرت إبّان الاستعمار الفرنسي لسوريا (١٩١٨ ـ ١٩٤٨م) بتسميتها بـ«العلويين» نسبة إلىٰ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. ولمّا كان السياسيون الفرنسيون في أوائل القرن الجاري بصدد تجزئة سوريا إلىٰ دويلات مستقلة هي: الحكومة المركزية في دمشق، وأُخرىٰ درزيّة، وثالثة علويّة، فقد احتاج مشروعهم هذا إلىٰ دراسة النسيج الديني لهذه المناطق.

وقد كان أتباع هذه الطائفة عرضة ـ علىٰ الدوام ـ لظلم واعتداء جيرانهم المتعصّبين وسكّان المناطق الاسماعيلية، الأمر الذي قادهم ـ لكي يحفظوا عقائدهم وتقاليدهم وآدابهم ويواجهوا تهمة التكفير ـ إلىٰ التشدّد في المحافظة علىٰ كتبهم ومؤلّفاتهم،بشكل تسبب في تزايد ظهور الشكّ والإبهام في هذه الطائفة، وبات الآخرون ينسبون إليها أموراً قائمة علىٰ الحدس والتخمين، فقال البعض، مثل ابن تيمية والشيخ عبدالرحمٰن أفندي العمادي، بكفر هذه الطائفة وهدر دم أتباعها.

وقبل الدخول في البحث حول تاريخ هذه الطائفة وعقائدها، نلقي نظرة سريعة علىٰ

كيفيّة تعرّف المستشرقين على هذه الطائفة، لكي لا يتمّ الاعتماد على آرائهم بسهولة، ولتجاوز مخاطر التحقيق ومزالقه. ونبدأ بحثنا من المستشرقين الفرنسيين، لأنّهم ذهبوا في كشف عقائد هذه الطائفة أبعد من غيرهم، كالألمان مثلاً.

رغم أنّ مصادر الفرق الإسلاميّة تطرّقت بشكل مختصر لعقائد النصيريّة، إلّا أنّ أحداً لم يتحدّث عنهم بالتفصيل قبل سنة ١٨٦٣م، إذ تنصّر الشيخ سليمان الأذني، أحد شيوخ النصيريّة في مدينة «آدانا» الواقعة جنوب غرب تركيا، على يد المبشّرين الأمريكيين، فاختار الإقامة لفترة في مدينة «اللاذقيّة» وهي إحدى المدن الموغلة في القدم شمال غرب سوريا على ساحل المتوسط، وهناك ألّف كتاباً أسماه «الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النصيرية» كشف فيه عقائد النصيرية وعاداتهم وتقاليدهم. وقد قام المبشّرون الأمريكيّون بطبعه في عام ١٨٦٣م، وأعادوا طباعته في عام ١٨٦٤م أيضاً. وقد أثار انتشار الكتاب في المناطق العلوية في سوريا وتركيا حفيظة وعداء شيوخ هذه الطائفة، فقد أوجد الكشف عن عقائدهم قلقاً كبيراً لديهم. وفي الكثير من الحالات لم تعكس مواضيع الكتاب عقائدهم على حقيقتها، إذ كان العلويّون كذّبوها مراراً، تحاشياً لحملات المعارضين، كما واجهوا في عصر ابن تيمية والعثمانيين التكفير والإبادة. لذلك بعثوا إليه رسالة ودّية من مسقط رأسه دعوه فيها إلى العودة إلى أوساط أترابه السابقين في الدين، لكنّه عندما عاد إلى وطنه حاصره الناس وأحرقوه حيّاً، وسحبت نسخ كتابه من كافة المدن وأُحرقت بعد ذلك، بشكل بات هذا الكتاب من أكثر مؤلّفاتهم سرّية. إلّا أنّ وجود نسخ معدودة من الكتاب كان كافياً لوقوعها بأيدي المستشرقين، ومن ثم اطّلاعهم على آراء وعقائد هذه الطائفة. ففي حينها عثر في بيروت كاتب اسمه «يوسف كتافاغو»[1] على نسخة من الكتاب، فكتب تحليلاً عن

(1) Catafago.

الكتاب نشرته مجلّة «آسياتي»[1] الناطقة بالفرنسية. وكتب «كلمان هوارت»[2] مقالاً آخر باللغة الفرنسية في نفس المجلة حول الكتاب[3]، ونقل إلىٰ الفرنسية قصائد شيوخ النصيرية حول عقائدهم التي أوردها سليمان الاذني في كتابه «الباكورة» ثمّ نشرها في باريس[4].

لكنّي أذهب إلىٰ أنّ «إدوارد إ. ساليسبوري»[5] أصدر في بيروت سنة ١٨٦٤م ـ وهي سنة صدور كتاب «الباكورة» ـ ترجمة أوفىٰ لذلك الكتاب في مقال له بعنوان «أسرار مذهب النصيرية»[6]. ولعب «كتافاغو» دوراً مهماً في حصول الفرنسيين علىٰ النسخ المخطوطة والسرّية للنصيرية، وحسب علمنا فإن كتاب «تعليم الديانة النصيرية» المهم، أُرسِل من كاتب مجهول عبر «كتافاغو» إلىٰ المكتبة الوطنية في باريس[7]، وقد شاهدت بنفسي توقيع «كتافاغو» علىٰ غلاف الكتاب.

بعد ذلك قام الفرنسي «هنري لامنس» سنة ١٨٩٩م بتأليف كتاب حول تاريخ النصيريين وعقائدهم[8]. فثمّة مقالات متعدّدة له نشرتها المجلّات الفرنسية في السنوات ١٩٠١[9]، و١٩٠٢[10]، و١٩١٥م[11] حول النصيريين، ولقائه بأحد كبار شيوخ الفرقة الحيدريّة التابعة للنصيرية، إلّا أنّ الأهم من كلّ ذلك هو كتاب تاريخ الفرقة النصيرية

(1) Journal Asiatique, ser 1V,t. X1, P149; Ser, V11,t. V111, P.523.
(2) M.clement Huart. (3) ibid, ser, V11,t. X1V, P.191.
(4) Clement Huart, Lapoesie Religieuse Des Nosairis, Paris, Mccc Lxxx.
(5) Edward E. Salisburg, See: Ali Akbar Ziaee, Bibliography of Islamic Sects, Beirut, 1991, P.173.
(6) The Mystries of the Nusairian Religionin: Journal of the American Oriental Society, 1864, PP.227 - 308.
(٧) طبع باريس, arab 6182.
(8) Henri Lammens, Les Nosairis, Nots Sur Leurhistoire et lear religion, paris, 1899.
(9) "Les Nosairis Furent - ils chre'tiens?" in: Revue de l'orient chre'tien, 1901.
(10) "Les Nosairis dans. le Liban" in: ibid, 1902.
(11) "Vne Visite aa Shaikh Supreme des Nosairis Haidaris" in: Journal Asiatque, janvier - fevrier, 1915, PP.145 - 50.

لـ«رينه دسو»[1] الذي صدر في باريس عام ١٩٠٠م.

ويمكن الإشارة إلىٰ أنّ «لويس ماسينيون» وهو أحد أهمّ الكتّاب المستشرقين الفرنسيين، كتب في سنة ١٩١٣م أوّل مقال حول النصيريّة في دائرة المعارف الإسلاميّة[2]، ثمّ كتب مقالاً ثانياً في ثلاث صفحات في سنة ١٩٢٢م حول نفس الموضوع[3]. ومن المؤكّد أنّ احتلال فرنسا للمناطق العلويّة في سوريا في الفترة ما بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨م هو الذي عمّق الرغبة لدىٰ «لويس ماسينيون» في التعرّف علىٰ هذه الطائفة، خدمة لأهداف الفرنسيين التجزيئيّة، فسعىٰ لتعزيز معرفته بالنصيرية.

وقد أعدّ «لويس ماسينيون» في عام ١٩٣٩م[4] ثمّ في عام ١٩٦٣م[5] فهرساً مختصراً للنسخ المخطوطة والسرّية للنصيرية، معتمداً في ذلك علىٰ عدد من النسخ المخطوطة، إضافة إلىٰ كتاب «الباكورة» الذي كان أُرسل سلفاً إلىٰ المكتبة الوطنية في باريس. وكان الكاتب العلوي الأستاذ «هاشم عثمان» قد أخبرني بأن «لويس ماسينيون» أخذ الفهرس المذكور بشكل شفهي عن العلوي المعروف «الشيخ عبدالرحمن خير»، وزاد عليه بعض الإضافات. ولم يكن فهرس «ماسينيون» بمنأىً عن الخلل والخطأ، لعدم اطّلاعه الكامل علىٰ المخطوطات الأُولىٰ لهذه الطائفة. وقد قام عبدالرحمٰن بدوي ومن دون تحقيق بإدراج فهرس «ماسينيون» الموجود في كتاب operaminora في كتابه «مذاهب الإسلاميين»[6] وبعد ذلك ألّف «ماسينيون» كتاباً آخر بهذا الشأن في سنة ١٩٦١م[7].

(1) Rene Dussaud, Histoire et religion des nosairis, paris, 1900.
(2) Louis massignon "Nurairi" in: EI, Leiden, 1913 - 34; tI, Paris, 1960.
(3) Revue du monde musulman, mars, 1922, Vol. xlix, PP. 57 - 60.
(4) "Esquisse d'und bibliographie nusayrie" in: melanges Syrien's offerts a Monsieur Rene' Dussaud, Vol. 2 (paris, 1939), PP 913 - 922.
(5) Opera Minora, Beyrouth, 1936, I/640 - 649.
(٦) طبع بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧١، ٢/ ٤٢٥ ـ ٥٠٦.
(7) Les Nusaiyries Elaboration De L' islam, Paris, 1961.

ولعلّه من الممكن القول إنّ مركز البحوث الفرنسي في دمشق برئاسة «لويس ماسينيون» وضع في ذلك الوقت المصادر والمراجع تحت تصرّف الكتّاب الفرنسيّين للتعرّف على هذه الفرقة الشيعيّة، إلّا أنّ الشكوك نالت من قيمتها العلميّة، إذ أظهر البحث الدقيق لبعض الكتب المخطوطة المنسوبة لهذه الطائفة أنّها كانت عرضة لتلاعب مثيري الفتنة والفرقة. وتمثّلت المصادر التي استقطبت اهتمام الفرنسيّين بهذه الكتب، وتقارير الجنرالات الفرنسيّين في مناطق العلويّين، وأخبار متفرّقة من التجّار والسيّاح الفرنسيّين في تلك المناطق.

ولتوضيح الكيفيّة التي تعرّف بها المستشرقون الفرنسيون على هذه الطائفة، نشير إلى وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٩م[1].

تشتمل هذه الوثائق التي أرسلها العلماء والخبراء وأساتذة الجامعات إلى وزارة الخارجية الفرنسية على جوانب مختلفة لهذه الطائفة، كالجانب الاقتصادي والاجتماعي والعسكري والسياسي لمناطق العلويين النصيريّة. فمثلاً أرسل أستاذ كلّية الحقوق في جامعة ليون «أيولين بول»[2]، ولجنة جمع المعلومات Service des renseignements قسماً كبيراً من هذه المعلومات إلى فرنسا. وكانت فرنسا، ولتحقيق أهدافها في سوريا، قد دعت أتباعها كافّة إلى جمع المعلومات عن المناطق العلوية ومختلف قبائل وفرق هذه الطائفة. وقد بدأت الدراسات الفرنسية من التقارير العامّة حول المناطق العلوية في سوريا، مثل مدن «اللّاذقية» و«طرطوس» و«جبلة» و«جسر الشغور» ـ والذي يسمى خطأً «جسر الشغور» ـ وبعض قرى مدينة «حمص»، ووصلت بالتدريج إلى عقائد العلويّة وكياناتهم الدينيّة، وطبيعة الارتباط مع الشيوخ والخلافات القديمة بين القبائل.

(1) Quaid' orsay.

(2) Iuvelin Paul.

واشتملت وثائق وزارة الخارجيّة الفرنسيّة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٨ و١٩٢٩م على أبحاث حول الشيعة الإثني عشريّة ـ الذين كان يرأسهم كامل بك الأسعد ـ والدروز والعلويّين والقبائل العربيّة والشراكسة وغير ذلك. هذه الوثائق ـ التي هي في واقعها بحوث فرق جمع المعلومات الفرنسيّة في المنطقة ـ كانت موجّهة بشكل كامل لخدمة أهداف الفرنسيّين. وقد سعوا عبر هذه البحوث لتحديد نقاط ضعف الطوائف، ومن ثمّ اختراقها من خلالها، وكذلك التعرّف على مواضع القوّة فيها، وكلّ ذلك لتعزيز السياسة الفرنسيّة في المنطقة. وكان الرئيس «ميلران» والجنرال «كورو» أوّل من أطلق مشاريع البحث في سوريا ورسم هيكليّتها.

كان «ميلران» قد قال في رسالة سرّية بعث بها إلى الجنرال «كورو» سنة ١٩٢٠م، وشرح له فيها مشروع الحكومة الفرنسية في سوريا: «إنّ العلويين القاطنين في المناطق الساحلية والجبلية السوريّة والناطقين بالعربيّة يمثّلون فرقة دينيّة مرتبطة بالإسلام، إلّا أنّ هذه الجماعة ليست في واقعها ضمن الدائرة الإسلاميّة، فلا يجب عدّهم من المسلمين».

وقد كان يهدف من حديثه ذلك إلى التفرقة الدينيّة، إذ كانت منطقة العلويّين جزءاً من المناطق السنّية، إلّا أنّها أعلنت استقلالها سنة ١٩٢٢م إثر نشاطات الفرنسيّين، واعتُرف رسميّاً بحكومة العلويّين، واشتهرت المنطقة باسم بلاد العلويّين Territoire des Alaouites واشتملت هذه المنطقة على مدينة اللّاذقية وأطرافها، أي: صهيون، وجبلة، وبانياس، وصافيتا، وطرابلس القديمة، وناحية طرطوس، وأطراف مصياف.

وأشار «كومت ر. د. بيرون» في كتابه «في طريق سوريا» الذي أصدره عام ١٩٢٨م إبّان الاحتلال الفرنسي إلى هذه الطائفة أيضاً[1].

(1) Comete R. D. Biron, Sur Les Routes De Syer, Paris, 1928.

بعد ذلك كتب «بيير ماي» متصرّف مدينة اللّاذقية ـ مركز العلويّين في سوريا ـ كتاباً بعنوان «العلويّة»[1] حول عقائد العلويّة، وآدابهم وتقاليدهم المذهبيّة، وشيوخهم وأعرافهم القبليّة، في ضوء مشاهداته. وسعىٰ فيه إلىٰ استقطاب مشاعر العلويّين الموالين لفرنسا إليه، بادّعائه أنّ الفرنسيّين ينادون بتحرير العلويّين من ظلم العثمانيّين وجورهم.

ومن أهمّ بحوث الفرنسيّين في فترة الاحتلال الفرنسي لسوريا كتاب «منطقة العلويّين» الذي وضعه الكاتب الفرنسي الشهير «ج. ويلرس» سنة ١٩٤٠م في مجلّدين[2]، وقد تناول فيه الموقع الجغرافي للعلويّين وتاريخهم وعقائدهم، كما ضمّنه بحوثاً حول بعض الأقلّيات الدينيّة في سوريا، كالمسيحيّة والفرقة الاسماعيليّة، وأهمّ ما في الكتاب هو احتواء مجلّده الثاني علىٰ عدد كبير من الخرائط والصور للمناطق العلوية.

ومنذ عام ١٩٤٠ حتىٰ عام ١٩٨٠م أوقف الفرنسيون أبحاثهم، وذلك لهزيمتهم أمام الحكومة المركزيّة في دمشق، وسقوط الحكم الذاتي للعلويّين، باستثناء البحوث التي قام بها «ماسينيون» بين عامي ١٩٦١ و١٩٦٣م. وفي عام ١٩٨٠م كتب «ميشيل سورات»[3] بحثاً حول المذاهب والفرق المختلفة في سوريا ضمّنه موجزاً عن العلويّين، وبعد ذلك كتب «ألاين نيمير» في كتابه «العلويون» الذي أصدره عام ١٩٨٧م مختصراً في ٧٧ صفحة حول العلويّين لكن مواضيعه افتقدت الدقة العلميّة.

وتجدر الإشارة إلىٰ أنّ المؤلّفات التي برزت في العقد الأخير حول العلويّين في لبنان، وقام بإصدارها الفرنسيون أو المارونيّون التابعون لفرنسا بأسماء مستعارة أحياناً

(1) Pierre May, L'Alaouite, Beirut, 1931, 79P.
(2) J. Weulersse, Le Paydes Alaouites, France,Institut Francais de Damas,1940,2 Vol.
(3) Michel Seurat, La Syrie d' aujourd' hui, Edited by Andre Raymond, Paris, CNRSI 1989.

مثل «أنور ياسين» أو «أبو موسىٰ الحريري»، ليست ممّا يمكن الاعتماد عليه كثيراً، لأنّ الهدف من تأليفها كان إضعاف العلويّين في سوريا ودعم مارونيّي لبنان معنويّاً، وإظهار العلويّين بصورة مثيري العداء للمسلمين. ولم يصدر في فرنسا منذ ذلك الحين أي بحث جديد حول العلويين، فيما عدا ما يقوم به الآن مترجم مؤلّفات نجيب محفوظ إلىٰ اللّغة الفرنسيّة «جيرار بيبوندا» المقيم حاليّاً في مدينة «اللّاذقية» مركز العلويين، من ترجمة كتاب «العلويّون بين الأُسطورة والحقيقة» لمؤلّفه العلوي «هاشم عثمان» إلىٰ اللّغة الفرنسيّة. وقد صدر الكتاب في بيروت عام ١٩٨٥م، إلّا أنّ الناشر حذف منه مواضيع كثيرة وفقاً لرغبته، والمترجم ينقل إلىٰ العربيّة نسخة الكتاب الكاملة.

وكان مؤلّف الكتاب قد أخبرني قبل فترة أنّه بصدد تأليف المجلّد الثاني من كتابه، الذي سيضمّنه تفاصيل أكثر من الأوّل حول عقائد العلويّين. وما دفع المستشرقين الفرنسيّين إلىٰ الاهتمام بالكتاب هو اعتماد مواضيعه علىٰ عدد كبير من مؤلّفات العلويّين الخطيّة والسرّية.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال أمير المؤمنين عليه السلام:

هلك فيّ رجلان:
محبٌّ غالٍ ومبغضٌ قالٍ

نهج البلاغة / القول ١١٧